العرب
الأحد 2020/01/05
السنة 42 العدد 11577

صورة اليهودي في الرواية العربية

مغامرة نقدية عربية بحثا عن صورة الآخر عدوا ومختلفا في الأدب الروائي

هل هناك صورة يمكن تظهيرها لليهودي في الرواية العربية؟ لم يكن هذا السؤال ملحّا قبل مطلع الألفية الثالثة، على اعتبار أن الأدب العربي لم ينشغل بالشخصية اليهودية، ولم تكن هناك روايات كثيرة كرست لليهودي حضورا يستوجب طرح السؤال عن طبيعة حضوره، وعن الصورة التي يمكن أن يكون الأدب قد بلورها لهذه الشخصية التي ارتبط وجودها في التاريخ العربي الحديث بإشكاليات كثيرة. هذا الملف يقدم بحوثاً وقراءات في هذا الموضوع المثير، لاسيما أن هناك اليوم ملامح لحضور لم يعد بالإمكان تجاهله للشخصية اليهودية في المنجز الروائي العربي المعاصر.

ينقسم هذا الملف إلى ثلاثة أقسام أولها يحتوي على دراسات ومقالات لنقاد وقفوا على المشترك في أعمال لروائيات وروائيين عرب من مصر واليمن وفلسطين وسوريا والعراق وجغرافيات عربية أخرى، وقرأوا تجليات حضور هذه الشخصية في الروايات المكتوبة خصوصا منذ مطالع الربع الأخير من القرن العشرين، وصولا إلى اللحظة الحاضرة، وهو ما يظهّر ويتقصّى معاً الملامح المتعددة للشخصية اليهودية كما جرى تناولها، وما تميزت به، وقوفاً على مختلف الدلالات التي تمنحها لنا تلك الصور الأدبية التي رُصدت من خلالها شخصية اليهودي.

إلى جانب ذلك هناك قراءات أفردت لروايات بعينها وشهادات من كتاب عرب حول الدوافع والأسباب الأدبية التي حضتهم على تناول هذه الشخصية والاهتمام بها في رواياتهم وأعمالهم الأدبية.

تحوّلات الشخصية اليهودية في الرواية العربية

زياد الأحمد
كاتب سوري

ساهمت عوامل تراثية دينية متنوعة، وأدبية عالمية، قبل العربية، إضافة إلى عوامل سياسية في تنميط صورة الشخصية اليهودية، ورسمها بملامح فرضتها سلوكياتهم التي انعكست في مرايا الآخرين.

ففي قصص التراث الديني قامت تلك الصورة على غدر اليهود وقتلهم حتى لأنبيائهم، ثم معاداتهم للمسيحية وغدرهم بنبيها، ومن بعدها تفرغهم لحبك الدسائس والمؤامرات للإيقاع بالإسلام والمسلمين.

كما أضاف الأدب العالمي ملامح جديدة لتلك الشخصية، تجلت في جعلها الطرف المناقض للخير والإحسان، المفطور على الجشع وحب المال وذلك من خلال شخصية "شايلوك" في "تاجر البندقية" لشكسبير ومربي اللصوص "فاجن" الذي يجمع الشيطانية والشر في "أوليفر تويست" لتشارلز ديكنز.

ثم جاء الصراع العربي الصهيوني ليلوّن تلك الصورة بدم الفلسطينيين الأبرياء في مجازر مروّعة، كان دمها كفيلاً بمحو الحدود الفاصلة بين مصطلحي الصهيوني المحتل، واليهودي الموسوي الذي كان يشارك العربي الوطن وأفراحه وأتراحه.

وبذلك انعكست تلك الصورة النمطية لليهودي على الأدب والفن بشكل عام، وعلى الرواية بشكل خاص، حيث تطالعنا ملامحُ تلك الشخصية الإشكالية النمطية منذ أول رواية ظهرت في فلسطين "الوارث" لخليل بيدس 1920 وتبدو فيها شخصية اليهودي انتهازية جشعة متكالبة على المال. وفي "زقاق المدق" لنجيب محفوظ (1947) يأتي وصف اليهوديات على لسان حميدة بأنهن متحللات من العادات والأعراف والتقاليد. ولا تختلف الصورة عند إحسان عبدالقدوس في رواية «لا تتركوني هنا وحدي» (1979) ففيها المرأة اليهودية التي تضحّي بكل شيء في سبيل المال.

ونراها كذلك بمظهر المحتقر للآخرين والمستبيح دمهم، في رواية «دم لفطير صهيون» (1971) لنجيب الكيلاني. وتتجمع فيها سمات الخيانة والإرهاب والجبن والنفاق في رواية «أحمد وداود» (1986) لفتحي غانم.

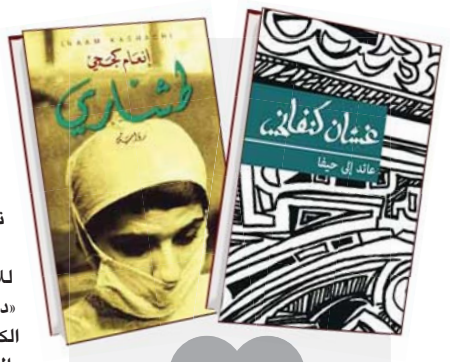

جاء الصراع العربي الصهيوني ليلوّن تلك الصورة بدم الفلسطينيين الأبرياء في مجازر مروّعة، كان دمها كفيلاً بمحو الحدود الفاصلة بين مصطلحي الصهيوني المحتل، واليهودي الموسوي الذي كان يشارك العربي الوطن وأفراحه وأتراحه

ملامح تحوّل

لم تخلُ بعض الأعمال من التقاط بعض الملامح الإيجابية في تلك الشخصية فغسان كنفاني في روايته "عائد إلى حيفا" (1969) يرينا تلك المرأة اليهودية التي تتألم لطفل فلسطيني يرميه عسكر اليهود في شاحنة وقد ذكّرها بما فعله النازيون بأخيها. وفي مرحلة لاحقة تظهر صورة اليهود بملامح حيادية لا تكاد تميزهم عن الآخرين إلا بمهنتهم كما في "رحلة بالدسار" لأمين المعلوف و"أرض السواد" لعبد الرحمن منيف. ثم ما لبثت تلك الحيادية أن أخذت تنحو نحو الإيجابية، حين تم تصويرهم كمكون من المجتمع الذي ينتمون إليه ويندمجون فيه، ويتعايشون مع عاداته وأعرافه، حتى إنّ بعضهم يوافقه في مواقفه المعارضة للحركة الصهيونية، وهكذا بدأت شخصية اليهودي تظهر بصفته فرداً ينتمي إلى محيط إنساني أكثر من كونه متقوقعاً في إطار مرسوم له دينياً وتاريخياً كما في «شرق النخيل» (1985) لبهاء طاهر، وفيها تبرز شخصية اليهودي الطيب الذي يرفض المشروع الصهيوني كغيره من العرب، ويرفض الهجرة إلى فلسطين. وتتوضح الصورة أكثر في "يوميات يهودي من دمشق" لإبراهيم الجبين من خلال شخصية "إخاد" الذي ارتبط بدمشق بجذور تمتد لآلاف السنين، رافضا ألا تكون أرضاً مقدسة كأرض فلسطين التي يرفض الهجرة إليها.

ومع مطلع هذا القرن بدأت تلك الشخصية تظهر كنموذج إنساني متداخل العلاقات مع النماذج الأخرى المكونة للمجتمع الذي تعيش فيه، ويمكن قبولها والتعايش والتزاوج منها، فظهرت أعمال تخصّ اليهود بموضوعها، وعنوانها أحياناً، راصدة تفاصيل حياتهم، وعلاقاتها فيما بينهم، ومع الآخرين، ومنها رواية "يهود الإسكندرية" لمصطفى نصر و"آخر يهود الإسكندرية" لمعتز فتيحه وكلتاهما تتناول قضية اليهود المصريين، فنراهم نماذج إنسانية متعددة، شخصيات تتعايش مع مجتمعاتها المختلفة، تعشق وتعمل وتنجح وتفشل، تغدر وتتآمر، تعاني الاضطهاد وتخاف من الحرب وتهيم في بقاع الأرض بحثا عن ملاذ آمن وتنفطر قلوبها حزناً على فراق الوطن وتحلم بوطن يكون أفرادها فيه الأغلبية.

وفي العراق نجد أعمالاً كثيرة ومنها "عاشقان من بلاد الرافدين" لجاسم المطير التي تجمع الصور المتناقضة لليهود، الإيجابية والسلبية، فتأتي على يهود يحبون المال ويتعاملون بالربا، ولكنها في المقابل تأتي على آخرين منهم يقرضون المال للأغيار بلا فوائد. وقد تكون الفتاة شريفة وعمتها بغيّ، وفيها يهود يتجسسون على يهود، وهناك يهوديات يُقوّدن على فتيات. والرواية تأتي على يهود عراقيين يُحبّون العراق ويرونه وطنهم، فكرجي بلا انتماء.. "أنا يهودي الدين والنسب، وطني هو البصرة"

وقد راح اليهودي في تلك الأعمال يتحول من شخصية عارضة ثانوية إلى شخصية محورية وأحيانا لها دور البطولة الإيجابية كرواية "ضفاف بابل" لخالد القشطيني، حيث نستطلع صورة مشرقة لليهودي العراقي في شخصية الطبيب "عبدالسلام ساسون"، وهو الموثوق الوحيد من الحاج نوفل الحنفي، لحسم قضية عذرية ابنته وشرفه، ويجبره بالسلاح على التخلص منها وغسل عارها، ولكن إنسانيته لم تسمح له بقتلها فأوهمهم بذلك، وأرسلها إلى مكان آمن.

نموذج إنساني متداخل العلاقات (لوحة مازن الفيل)

اليهود في الرواية العراقية في القرن الحادي والعشرين

عادل الأسطة
ناقد وأكاديمي فلسطيني

خلال تحضيري للكتابة عن صورة أميركا في الرواية العربية توقفت أمام رواية عواد علي "حليب المارينز" (2008)، ولفت نظري فيها حضور شخصية يهودية تروي فصلين من فصول الرواية الثلاثة والعشرين. صورة روزا في الرواية أعادتني إلى روايات عراقية، أو تجري أحداثها في العراق، أبرزت أيضاً صورة لليهود أو كتبت عن نماذج يهودية، روايات كنت قرأتها وكتبت عن بعضها مقالات تمس الرواية بعامة، لا صورة اليهود فيها وحسب. بعض هذه الروايات صدرت قبل صدور رواية "حليب المارينز"، وبعضها صدر بعد العام المذكور.

أشير، ابتداءً، إلى أنني كنت توقفت، في دراسة خاصة، أمام رواية الروائي النجدي عبدالرحمن منيف "أرض السواد" (1999) وكتبت عن صورة اليهود فيها على ضوء صورتهم في الأدبين العالمي والعربي. ومنيف لم يكتب عن يهود العراق في القرن العشرين، إنما عن اليهود هناك في بدايات القرن التاسع عشر، حيث تجري أحداث روايته في العشرين سنة الأولى من القرن التاسع عشر، ما يعني أنه لم يكتب عن يهود عرفهم وأصغى إليهم، وإنما كتب عن يهود قرأ عنهم في الكتب.

في العام 2000 أصدر علي بدر رواية عنوانها "مصابيح أورشليم: رواية عن إدوارد سعيد"، وهي لا تأتي على يهود العراق، وإنما تكتب عن اليهود في مدينة القدس، المدينة التي لم يزرها الكاتب، وإنما عرفها من خلال أطلس جغرافي، ومن خلال خريطة غوغل، وأيضاً من خلال روايات كُتّاب إسرائيليين قرأ رواياتهم بلغة أخرى غير العبرية، وكانت شخوص روايته من المؤلفين الإسرائيليين ومن أبطال رواياتهم، ومن بعض كتابات إدوارد سعيد، ابن المدينة، عن المدينة. هذا يعني أن علي بدر يعيد كتابة تخيل الذات لذاتها، كما بدا في الأدبيات الإسرائيلية، وتخيلها لآخرها العربي، بل وتخيلها لتخيل العربي لها. هل قدم علي بدر تصوره أو تصور أبطاله هو لليهود؟

لوحة عصام درويش

يهود «بابا سارتر»

يختلف الأمر في رواية ثانية لعلي بدر هي "بابا سارتر" التي يكتب فيها عن بغداد في ستينات القرن العشرين. في هذه الرواية ثمة حضور، لا بأس به، لليهود، حضور يبرز تصور سكان العراق لهم، وفي الوقت نفسه حضور يتجسّد عبر شخصيات يهودية عراقية أصلاً، ظلت مقيمة في وطنها، ولم تهاجر إلى إسرائيل أو إلى أميركا أو أوروبا. ويتجسد هذا في "شاؤول" وفي إيلين إفرايم ووالدها. والحضور الأكبر يكون لشاؤول الذي خانته زوجته وغادرت العراق، وتركه أبناؤه إلى لندن. شاؤول صاحب متجر وله فلسفته الخاصة: إنه يريد، من خلال العقل، إنشاء مستعمرة السعادة، وهو يعنى بالفكر أكثر مما يعنى بالحياة العملية، ومنذ تخلى عنه عامله وقريبه، أخذ يبحث عن تابع له ليستغله، وليجعل منه شخصاً عبداً، يحركه كما يشاء، وحين حاول هذا مع سليم لم ينجح، فقد كانت فلسفة سليم على النقيض من فلسفته. سليم يحب الحرية والسكر والعربدة واللذة. إلى جانب شاؤول هذا الذي يكتب ثروته لزوجته التي خانته ولأبنائه الذين تركوه، وهو الذي يجمع المال لا لينفقه وهو حيّ، وإنما يجمعه لينفقه وهو ميت (؟) هناك المرأة اليهودية الجميلة إيلين، إنها يهودية جميلة جداً تكون موضع نظر كثر، وهناك والدها إفرايم، وهو صراف مراب يلجأ إلى الخديعة لإذلال من لا يروق له. هكذا تتكرر في الرواية، بقصد أو دون قصد، صفات تقليدية لليهود: حب المال، الصيرفة، الربا، الجبن، حب الجنس، الأنف الطويل، جمال المرأة اليهودية، فهي تشبه الطليانيات و.. و.. ولكن اللافت هنا أن حارة اليهود كانت تبدو قذرة، وهي تذكّرنا بحي اليهود الذي كتب عنه نجاتي صدقي قصته "شمعون يوزاجلو"، بل وتذكرنا بالصورة التي أبرزها "ثيودور هرتسل" ليهود الشرق، وللشرق بعامة، وليافا وللقدس، في روايته "أرض قديمةجديدة" (1902).

يهوديان عاشقان

في العام 2003 سينشر جاسم المطير رواية عنوانها "عاشقان من بلاد الرافدين" وهي مجموعة رسائل بين عاشقين يهوديين هما راشيل وكرجي، كتبت الرسائل بالأصل باللغة العبرية، كما ورد في مقدمة الرواية، ثم ترجمت، فيما بعد، إلى العربية، فكونت الرسائل الرواية. والرواية تأتي على يهود العراق وأحداث الفرهود حتى تهجير يهود العراق.

هل تختلف صورة اليهود في هذه الرواية، بل وتصورّهم للآخرين، عما هو شائع في الأدبيات السابقة لها؟

وهل تختلف في روحها العامة عن تصورات ماركسي للشعوب وللعادات وللتقاليد؟ وإذا كان "هيو بوليت تين" ركز في دراسته للأدب على العرق، فإن الماركسيين رفضوا هذا واستبدلوا به الطبقة. هكذا لا توجد أعراق صافية تمتاز بخصائص تُورث لها، ولا توجد ديانات أيضاً يمتاز أبناؤها بخصائص ثابتة تميزهم عن غيرهم.

اعتماداً على ما سبق سيكون اليهود مثل غير اليهود، وسيكون غير اليهود مثل اليهود.

ينشر الملف بالاتفاق مع «الجديد» الشهرية الثقافية اللندنية والنص كاملا على الموقع الالكتروني